﴿*إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾ [الأنعام: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إعـــــراض الـكـافـريـن، ومـسـاواتـهـم المـــــوتى في عـدمِ الانـتـفـاعِ والاتّعاظِ

لَمّا أفادَتِ الآيةُ السّابقةُ تَأْييسَ وُلوجِ الإيمانِ إلى قلوبِ الكافرين، خاطبَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا له: لا تُطْمِعْ نفسَكَ فيما لا مَطمَعَ فيه؛ فإنَّ ما شاءَه اللّهُ تعالى لا يكونُ غيرَه، ولَمّا أَفْهمَ هذا القضاءُ الحَتْمُ أنَّه قد صارَ حالُهم حالَ من حُتِمَ بالموت، فلا يمكنُ إسْماعه إلّا اللّه تعالى، ولا يُمكِنُ أنْ يستجيبَ عادةً، قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ في مجاري عاداتكم الَّذين فيهم قابليَّةٌ للسَّمْع؛ لأنَّهم أحياء، فَيتدبَّرونَ حينئذٍ ما يُلْقى إليهم، فينتفعونَ به، وهؤلاء قدْ ساوَوُا الموتَى في عدم قابليَّةِ السَّماعِ للخَتْمِ على مشاعرِهم، والموتى كلُّهم حِسًّا ومعنًى يَبْعثُهم اللّهُ تعالى بإعادةِ الرّوحِ إليهم، فَيسْمعونَ حينئذٍ سماعًا لا يَنفعُهم، وقد حُرِموا فائدةَ السَّمعِ يومَ أنْ كان السَّمْعُ وفهمُ المسموع ينفعُهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: جوابُ الكلام: هو ما يقطعُ الجَوْبَ، فيصِلُ من فمِ القائلِ إلى سمعِ المتلقّي، لكن خُصَّ بما يعودُ منَ الكلام دونَ المبتدأ منَ الخطاب، قالَ تعالى: ﴿*فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النّمل: 56].

والاستجابةُ قيل: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجوابِ والتَّهيُّؤُ له، لكنْ عُبِّرَ به عنِ الإجابةِ لقلَّةِ انْفكاكِها منها، قالَ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][2]، والمقصودُ في الآية: ﴿إِنَّمَا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/101 - 102.

(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والرّازي، مختار الصّحاح: (جَوَبَ).

﴿يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: العملُ بما يطلبه الآمر، فالَّذي لا يسمعُ لا يُجيبُ، وليس عنده القُدرة على التَّحرّي والتَّهيُّؤِ للجواب فضلًا عنِ العمل.

2) ﴿يَسْمَعُونَ﴾: السَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذُنِ، به تُدرَكُ الأصواتُ، وفعلُه يُقالُ له: السَّمعُ أيضًا، وقد سَمِعَ سمعًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عنِ الأُذن، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فعلِه بالسَّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشُّعراء: 212]، وتارةً عنِ الفَهْم، وتارةً عنِ الطّاعة، تقولُ: اسْمَعْ ما أقولُ لك، ولم تسمعْ ما قلتُ، وتعني: لم تفهم، قالَ تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النِّساء: 46]، أي: فَهِمْنا قولَك، ولم نأتمرْ لك.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١﴾ [الأنفال: 21]، يجوزُ أنْ يكونَ معناه: فهِمْنا وهم لا يَفهمون، وأنْ يكونَ معناه: فَهِمْنا وهم لا يعملونَ بموجبِه، وإذا لم يُعمَلْ بموجبِه؛ فهو في حُكمِ مَنْ لم يُسْمَع[1].

ومنه الآيةُ الَّتي معنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: الَّذين يَفهمون، أو الَّذين يعملون بموجب ما يفهمون، فَعدَمُ عملِهم بما فهموا لا فائدةَ منه، ولذلك قالَ بعدَه: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فالَّذي لا يعملُ فيهم كالميِّتِ سواءً بسواء.

3) ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾: أصلُ البعث: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يُقالُ: بعثْتُه فانْبعَث، ويختلفُ البعثُ بحسَبِ اخْتلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثْتُ البعيرَ: أَثَرْتُه وسيَّرتُه[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُخرجُهم، ويُسيِّرهم إلى القيامة[3].

4) ﴿يُرْجَعُونَ﴾: الرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، أو تقديرُ البَدء مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وبذاتِه كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله، قالَ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة: 48][4]، وكما هنا في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، أي: يعودون إلى اللّهِ بذواتِهم كاملةً؛ ليُحاسَبوا على ما قدَّموه في دنياهم من أقوالٍ وأعمال.

(1) الرّاغب، المفردات: (سمع)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (سَمِعَ).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بَعثَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رَجَعَ).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المعرضون عن هداية الله كالموتى، يُتْرَكُ أمرهم إلى الله

يقولُ اللهُ تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: إنَّما يَستجيبُ لدعائكَ - يا محمَّدُ - مَنْ يسمعُ الكلامَ، ويَعيه، ويَفْهمُه، والكفّارُ موتَى القلوب؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بدعوتِكَ ورسالتِك، هم كذلكَ كمن ماتتْ أجسادُهم، سيبعثُكم، ويبعثُهم إليه، وفي هذا ما فيه من التَّهكُّمِ والازْدراء بهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ عنِ الآيةِ السَّابقة:

تقريرُ المعاني السَّابقة، وتعليلُ الواقع، من بيان السّياق الرّائع

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تقريرٌ لما مرَّ من أنَّ على قلوبهم أكنَّةً مانعةً منَ الفِقْه، وفي آذانِهم وقْرًا حاجزًا منَ السَّماع، وفيه كذلك تحقيقٌ مع التَّعليلِ من أنَّه كما لا يُتصوَّرُ الإيمانُ من الموتَى البتَّة، والاسْتجابةُ الأكيدةُ المقارِنةُ للقَبول، فكذلكَ هؤلاءِ الَّذينَ لم يَقبلوا دعوتَك - يا محمَّدُ ﷺ - إلى الإيمان، لو سمعوا ما يُلقى إليهم سماعَ تفهُّمٍ وتدَبُّرٍ؛ لاسْتجابوا[2].

سرُّ أسلوب القصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون بقيَّةِ الأساليبِ:

واجب الدَّاعي بذلُ الوُسع في الدَّعوة، دون إفراطٍ ولا تفريط

جاءَ القَصْرُ في صَدْرِ الآيةِ الكريمةِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي الَّتي يليها المقصورُ دائمًا دون غيرها من أساليب القَصْر وطُرقه[3]، وهذا المفهومُ للقَصْرِ مُؤذِنٌ بإعمالِ منطوقِه الَّذي يومِئ إلى إرجاءٍ بعدَ تأييسٍ: بأنَّ اللهَ جعلَ لقومٍ آخرينَ قلوبًا يفقهونَ بها، وآذانًا يسمعونَ بها، فأولئكَ هم الَّذين يَسْتجيبون[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

(3) وهذه خصيصةٌ للقَصْر بـ (إنَّما) أمّا غيْرها من أساليب القصر وأدواته؛ فإنها تختلف عن (إنَّما) فالقصر بـ (ما) و(إلّا) يكون المقصور عليه هو الَّذي يذكر بعد (إلّا) وإذا كان القصر بالعطف بـ (لا) كان المقصور عليه قبلها، وإذا كان العطف بـ (بل) أو (لكن) فالمقصور عليه بعدهما دائمًا، وإذا كان بتقديم ما حقُّه التَّأخير، فالمقدَّمُ هو المقصور عليه دائمًا، والمؤخَّر هو المقصور، ولكلٍّ من هذه الأدوات موضعٌ لا يصلح له غيرُها وهذا يدلُّ على دقَّةِ اللُّغة العربيَّة وسُموِّ بلاغتها ورقَّة طبع العرب في أفانين كلامهم، ينظر: الدكتور فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 175 - 177.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

وأفادَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أنَّ ما بعدَها هو ممّا لا يجهله المخاطَبُ، ولا يدفع صحتَّه[1]، وفائدةُ ذلك: تهوينُ الخَطبِ على رسولِ اللّه ﷺ، فهو يعلمُ أنَّه لا يستجيبُ إلّا المؤمنون الذين يسمعون، فليس عليه أن يكبُر عليه إعراضُ الكافرين موتى القلوبِ، فهذا حالُ المستجيبين وغيرِ المستجيبين، وفيه تقريرٌ لقاعدةٍ عظيمةٍ من قواعد الدَّعوةِ إلى اللّه تعالى، وهي أنَّ الأمرَ بيد اللّه تعالى، وأنَّه ليس على الدّاعي أن يبذلَ فوق طاقتِه في دعوتِه لدين اللّه، فالاستجابةُ مقترنةٌ بالسَّماعِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ على مرادفاتِه:

في قولِه تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ معنَى موافقةِ الدّاعي إلى الفعل لمجرَّدِ أنَّه دَعا به، مع كاملِ التَّهيُّؤِ له والامتثال، دون تردُّدٍ مع قَصْدِ التَّبَع؛ لأنَّ الدّاعيَ والآمرَ هو اللّهُ ﷻ، وهو أعلى مقامًا من المجيب ومن غيرِه.

الاستجابة أوسعُ دلالةً، من الطَّاعةِ والإقبالِ

لذا لم يَذكرِ الفعلَ (يُطيعُ) أو (يُقْبِلُ)؛ لأنَّهما قد يكونان بغيرِ قصْدٍ للتَّبع، وقد يكونُ الآمرُ آمرًا بخير، أو آمرًا بشرٍّ، وهذا لا ينسجمُ مع سياقِ الآيةِ الكريمة[2]، ولاشتمالِ الاستجابةِ على الطّاعة والإقبالِ ضمنًا، فهي أوسعُ دلالةً وأرحبُ معنًى.

معنَى السّين والتّاء في ﴿يَسْتَجِيبُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ بمعنَى يُجيب، فالسّينُ والتّاءُ زائدتان لإفادةِ التَّأكيد[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، فاسْتجابَ أخصُّ من أجاب؛ لأنَّ (اسْتجابَ) يقال لمن قَبِلَ ما دُعيَ إليه، وأجابَ أعمُّ، فيُقال لمن أجابَ بالقَبولِ وبالرَّدِّ، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بيانُ قَبولِ الدَّعوةِ ممَّن يَسْمع[4].

تأكيد استجابة مَنْ يَسمع، مفيدة في البلاغ وتأثيره

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 330.
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 334 - 335.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/202.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾:

تجدُّد الاستجابةِ وعدمِ انْقطاعِها

جاءتْ صيغةُ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ بالمضارع؛ لأنَّه يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، دون الانْقطاع؛ فالَّذين يَسمعونَ بتفهُّمٍ وتدبُّرٍ هُمُ الَّذين لا يَفْتأونَ يستجيبونَ لأوامرِ الدّاعي إلى الحقِّ والخير.

علَّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾:

الاستجابة الحقيقيّة لا تكون إلّا لله ورسوله

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾؛ فلم يقل: يستجيب إلى رسول الله، أو إلى الله تعالى؛ لظهورِه من السّياق؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الدَّعوةِ إلى عقيدةِ التَّوحيد، وتصديقِ الرَّسول في دعوته.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الظَّاهر:

مَدْحُ السَّامعين، يشمل كلّ من يتحقَّقُ منه السَّمعُ والتَّدبُّر

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الظّاهر، فلم يقل: (السّامعون)؛ لأنَّه أفادَ التَّعريفَ فيهم بقابليتهمُ السَّمعَ؛ فهم أحياءٌ يتدبَّرون حينَ دعوتِهم ما يُلْقى إليهم، فينتفعون به[1]، ولبيان مَدْحهم بما في حيِّز الصِّلة، فهم يسمعون على الدَّوامِ، ولإفادةِ العمومِ؛ لأنّ اسم الموصول (الذين) يشملُ كلَّ من يسمع، ولو قال: السّامعون؛ لظُنَّ أنَّهم سامعون مخصوصون.

دَلالةُ لفظِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾، وأثرها في السّياق:

السَّمع بمعنى الفقهُ والاعتبار، لا مجرَّد السَّماع

وردَ التَّعبيرُ بالسَّماعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ بمعنى سماعِ الاعْتبارِ، لا سماعِ الأصوات، لأنَّ المرادَ بالسَّمعِ هنا الفِقْهُ، أي: يَفْقهونَ ما يُلْقَى إليهم منَ الإرشاد، فالمقصودُ سمعٌ خاصٌّ، وهو سمعُ الاعْتبار[2]، وليس كلُّ مُؤمنٍ يفقهُ ما يوجَّهُ إليه منَ الأوامرِ والنَّواهي وغيرِها من أمور الدّين والشَّريعة والأخلاق، وإنْ كانَ الإيمانُ بريدَ ذلكَ وسببَه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 7/101.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

نكتةُ التَّعبير بالسَّماع ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ دون الإيمان، في الآية:

ورد قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا الوجهُ مقابلٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ فكما أنَّ الموتى لا يسمعونَ سماعَ اسْتجابةٍ فكذلكَ الَّذينَ يَسمعونَ، ولا يتدبَّرونَ، هم في واقعِ الحالِ لا يَستجيبون؛ ولذلك لم يقل: (الَّذين يؤمنون)، فلا وجهَ له هنا في سياق الآية الكريمة[1].

مقابلةُ لفظ الموتى لمن يسمعُ، ولا يَستجيب

دلالةُ الوقفِ على ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾:

جاءَ الوقفُ على ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ مقابلَ قولِه بعده: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، ليؤكِّد أنَّ الاسْتجابة لا تكون إلّا لمن يسمعُ بفقهٍ وتدبُّر[2]، والوقفُ تامٌّ[3]، ولو عطفَ؛ لترتَّبَ معنًى باطلٌ، وهو أنَّ الموتى يستجيبون.

الاستجابةُ المعتبرةُ هي المقرونةُ بسماعِ فقهٍ وتدبُّرٍ

بلاغةُ عطف جملة ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على سابقتها:

ولذلكَ بعدَ انْتهاءِ الجملةِ الأولى بـ ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ حَسُنَ عطْفُ جُملة: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على الجملةِ الأولى ﴿يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها استئنافيَّة، فأصبحَ معنَى الكلام: وأمّا المعرضونَ عنك - يا محمَّدُ ﷺ - فَهُمْ مثلُ الموتَى، فلا يَسْتجيبون، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النَّمل: 80].

أمواتُ القلوبِ في حاجة إلى بعثٍ، لأنّهم لا يَستجيبونَ للحقِّ

فحُذِفَ من الكلام ما دلَّ عليه السّياق، فإنَّ الَّذي لا يسمعُ قد يكونُ فقدانُ سمعِه من عِلَّةٍ كالصَّمَم، وقد يكونُ من عَدَمِ الحياة.

فتضمَّنَ عطفُ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعريضًا بأنَّ هؤلاء كالأموات، لا تُرجَى منهمُ اسْتجابة، وتخلَّصَ إلى وعيدِهم بأنَّه يبعثُهم بعدَ موتِهم، أي: لا يُرجَى منهم رجوعٌ إلى الحقِّ إلى أن يُبعَثوا، وحينئذٍ يُلاقونَ جزاءَ كُفرِهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(3) مكي، الهداية: 3/2012.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

براعةُ الاحْتباكِ بين جملتي: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ و﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

السَّماعُ للهدى بفهمٍ وتدبُّرٍ حياةٌ

بيَّن اللّهُ ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أنَّ الَّذين فيهم قابليَّةُ السَّمْعِ همُ الَّذين يستجيبون؛ لأنَّهم أحياءٌ، فيتدبَّرون ما يُلقَى إليهم، فينتفعونَ به، وهؤلاء الكافرون قد ساوَوُا الموتى في عدم قابليَّةِ السَّماعِ للخَتْمِ على مشاعرِهم، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كُلُّهم حِسًّا ومعنًى ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: المَلِكُ المحيطُ علمًا وقدرة، فهو قادرٌ على بعثِهم بإفاضةِ الإيمانِ على الكافر، وإعادةِ الرّوحِ إلى الهالكِ، فيسمعونَ حينئذٍ، ولذلك جاءتْ براعةُ الاحْتباكِ بين كلتا الجُملتَيْن في سياقِ الآيةِ الكريمة، حيث حذَفَ من الأوَّلِ: الحياةَ؛ لدَلالةِ ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ عليها، ومن الثّاني: السَّماع؛ لدَلالة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ عليه[1]، والتَّقدير: إنَّما يستجيبُ الأحياءُ الذين يسمعون، والموتى الذين لا يسمعون يبعثهم اللّه، وعلى هذا التَّقدير يتَّضح معنى الاستعارةِ في لفظ ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾.

بلاغةُ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾:

أفادتِ الاستعارةُ التَّهكُّمَ بالمُعرِضينَ عنِ الاستجابةِ للحقِّ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ استعارةٌ، حيث شبَّه الكافرين بالموتى، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة الأصليّة، فهي للكُفَّارِ الَّذين لا ينتفعونَ بعقولِهم ومَواهبِهم الَّتي وهَبَها اللّهُ لهم[2]، ويبعثُهم على هذا حقيقةً، فذكرُ البعث في قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ترشيحٌ للاسْتعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّ البعثَ من مُلائماتِ المشبَّه به في العُرف، وإنْ كانَ الحيُّ يُخبَرُ عنه بأنَّه يُبْعَث، أي: بعدَ موته، ولكنَّ العُرفَ لا يذكُرُ البعثَ إلّا باعْتبارِ وصفِ المبعوثِ بأنَّه ميِّت[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/101 - 102.
(2) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/189.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

وجهُ اسْتعارةِ البعثِ للهدايةِ في ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾:

هدايةُ الكافرينَ غيرُ مُمتنعةٍ في المـأثـور، وهـي بأمر الله وقَدَرِه المقدور

في قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ اسْتعارةٌ للهدايةِ بعد الضَّلالِ، تَبَعًا لاسْتعارةِ الموتِ لعدمِ قبولِ الهُدى على الوجهَيْن المعروفين في الاسْتعارةِ التّرشيحيَّة[1]، فالوجهُ الأوَّلُ: يكون بقاءُ البعثِ على حقيقتِه لا يُقصَدُ منه إلّا تقويةُ الاسْتعارة، وعلى الوجهِ الثّاني: يُستعارُ من ملائمِ المُشَبَّهِ به إلى شِبهِه من مُلائمِ المشَبَّه، فيكونُ على هذا الوجهِ في الكلامِ وعدٌ للرَّسولِ ﷺ بأنَّ بعضَ هؤلاء الضّالينَ المكذِّبينَ سَيهديهمُ اللّهُ تعالى إلى الإسلام، وهم مَنْ لم يَسْبق في علمِه حِرمانُهم منَ الإيمان[2]، وهذا تفسيرُ الحسن البصري رحمه اللّه تعالى حيث قال: "الكفّارُ مثل الموتى، واللّه يوفِّق منهم من يشاء إلى الإيمان، فيكون ذلك بعثَهم من موتهم"[3]، وهو تفسير إشاريٌّ مليحٌ.

وجهُ القصرِ والحصْرِ المستفاد في جملة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

كـلُّ الـخـلـقِ راجـعـون إلى الـلـه، ولا أحد يتأبّى عن مصيره ومنتهاه

قدَّم المعمولَ في جملة: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهو الجارُّ والمجرورُ إيذانًا بالحصرِ؛ أي: أنّهم يرجعون إلى اللّه تعالى وحده؛ لأنّه ليس هناكَ عدةُ ملوكٍ يَرْجِعُ بعضُ الناسِ إلى واحدٍ ليحاسبَه، وبعضٌ إلى واحدٍ ليُحاسِبَهُ، بل هو المَلِكُ الواحدُ القهارُ، الذي إليه مَرْجِعُ الجميعِ؛ ولذا قَدَّمَ المعمولَ فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[4].

---

(1) الاستعارة التَّرشيحيَّة أقوى أنواعِ الاستعارة وأكثُرها مبالغة؛ لأنَّ الاسْتعارةَ فيها تقوم على تناسي التَّشبيه، وذكر ما يلائم المشبَّه به، وهو (اللَّفظُ المستعار) الَّذي يُساعد على تناسي التَّشبيه، وأصلُ التَّرشيح في الاصطلاح: هو أن يُذكر في الكلام ما يُناسب المشبَّه به، وهو المستعار في أسلوب الاسْتعارة، والتَّرشيحُ وصفٌ عارضٌ للاسْتعارة، ولا يدخل في عناصرِها الأوَّليَّة المكوِّنة لها، وهو ليس بلازم فيها، وإنَّما رُشِّح ليقوّي الصّورة البلاغيَّة، ينظر: الحموي، خزانة الأدب، ص: 49، والزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/208.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

(3) مكي، الهداية: 3/2012.

(4) الشنقيطي، العذب النمير: 1/198.

نكتة اختيار صيغة ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ دون (سيبعثهم):

هداية الكافرين متحقِّقةٌ في كلِّ وقتٍ وحين

آثر النَّظمُ ذكرَ صيغةِ المضارعِ ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ دون ذكر ما يفيدُ الاسْتقبالَ كأن يُقال: (سيبعثهم)، مع أنَّه ظاهرُ الحالِ، وحقيقة المآل، فالبعثُ وإن كان مستقبَلًا لكنَّه في حكمِ الواقعِ المتحقِّق الَّذي لا رَيْب فيه، وهذا على المعنى الحقيقيِّ، أما على تفسير البعث بالهداية فتكون صيغة المضارع دالَّةً على تجدُّدِ الهدايةِ في قلوبِ الكافرين زمانًا بعد زمان، وحينًا بعدَ حين، بفعل الاستجابة لنداءِ الفطرةِ في قلوبِهم، ونداء القرآن في عقولِهم.

بلاغةُ إسنادِ فعلِ ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ إلى لفظِ الجلالة:

قـدرةُ اللـهِ على البعثِ حقيقيَّةٌ، والجزاءُ بعدَه لا مِرْيةَ فيه

في إسنادِ الفعلِ ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون بنائه للمفعول - فلم يقل: (يُبعثون) - بلاغةٌ تتجلّى من وجوهٍ:

الأوَّلُ: تربيةُ المَهابةِ في النُّفوس، والثّاني: إثباتُ عقيدةِ البعثِ الَّتي كان يُنكرُها كُفّارُ قريشٍ وغيرُهم، والثّالثُ: زيادةٌ في التَّهديدِ والوعيد، والرّابعُ: بيانُ أنَّ أمر البعث الحقيقيِّ بعد الموتِ أو الهدائيِّ بأمر الله وحده، والخامسُ: الحثُّ على الإيمان، والتَّرغيبُ فيه، وبيانُ قدرةِ اللهِ على البعث[1].

معنَى حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ ودلالته في السّياق:

الحشرُ قائمٌ لا محـالـةَ، بعـدَ الـبـعـثِ مـنَ القبور

في هذا التَّراخي بـ ﴿ثُمَّ﴾ بين قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: اسْتطرادٌ تَخلَّصَ به إلى قَرْعِ أسْماعِهم بإثباتِ الحشرِ الَّذي يقعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ[2].

براعةُ التَّرهيبِ باستعمالِ ﴿إِلَيْهِ﴾ العائدِ على لفظِ الجلالة:

خوَّفَ اللّهُ تعالى من سَطَواتِه بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إليه وحَده

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

يُرجعون، فلم يقل: (ثمَّ يُرجَعونَ)، وذلك لبيانِ أنَّ رجوعَهم إلى الذي كفروا به، ولم يستجيبوا لأمره، وإظهارَ هذا المعنى أرهبُ من تضمينه، فإنَّه تعالى قادرٌ على كلِّ ما يشاءُ منهم، لا يَخرُجُ شيءٌ من أحوالِهم عن مُرادِه أصلًا وحِسًّا بعدَ الموت، فيُساقونَ قَهْرًا إلى موقفٍ يُفصَلُ فيه بين كلِّ مظلومٍ وظالمه[1].

الرُّجوعُ إلى اللهِ للفصلِ بين العبادِ، مصير لامفرّ منه

بلاغة استعمالِ لفظِ الرُّجوع ﴿يُرۡجَعُونَ﴾:

الرُّجوعُ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ هو العَوْدُ إلى ما كانَ منه البَدْء، سواء أكانَ بذاتِه أم بجزءٍ من أجزائه، أم بفعلٍ من أفعالِه، فالنّاسُ جميعًا يعودون إلى اللّهِ بذواتِهم كاملةً، ليُجْزَوا، ويُحاسَبوا على ما قدَّموه في حياتِهمُ الدُّنيا من أقوالٍ وأعمال كما قالَ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48][2]، وبلاغة استعمالِ الرُّجوعِ لبيانِ أنَّ العبدَ سيرجعُ إلى موطنِه الذي أتى منه، ومكانِه الذي خُلِقَ فيه، وفيه بيانُ أنَّ الجميعَ لآدم، وآدمَ من ترابٍ، فالاستجابة الطَّوعيَّةُ أنجى منَ القهريَّة.

التَّنبيه على أنَّ الرُّجوعَ للموطنِ الّذي أتى منه الإنسان، قدرٌ محتوم

نكتةُ استعمالِ المضارعِ دون المصدرِ، في ﴿يُرۡجَعُونَ﴾:

أفادَ استخدامُ فعلِ المضارعِ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ - فلم يقل: (ثمَّ إليه المرجع) - الدِّلالةَ على حدوثِ الرُّجوع، كما دَلَّ على زمنِ وقوعِ الرُّجوع، فجمعَ بين أمرَيْن في قضيَّةٍ مهمَّةٍ أنكرَها الكُفّار، وهي عقيدةُ البعثِ في وقوعِه حَدَثًا وزمنًا، ولذا لم يستخدمِ النَّظمُ المصدرَ (الرُّجوع)؛ لأنَّه يدلُّ على عمليَّةِ الرُّجوعِ دون زمنِها الَّذي ستقعُ فيه يومَ القيامةِ بأمرِ اللّهِ وقدَرِه[3].

الرُّجوعُ إلى اللهِ واقعٌ حَدَثًا وزَمَنًا، وهو المصير في الدّنيا الغَرُور

بلاغةُ الاستطرادِ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ اسْتطرادًا تخلَّصَ به إلى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(3) ابن هشام، شرح شُذور الذّهب، ص: 18، 491 - 492.

أفادَ الاستطرادُ إثباتَ الحشرِ بعدَ البعث في المعاد

قَرْعِ أسماعِهم بإثباتِ الحشر الَّذي يقعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ، فيكونُ البعثُ في قولِه: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُستعمَلًا في حقيقتِه ومجازِه، وقريبٌ منه في التَّخلُّصِ قولُه تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 73][1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستجابة والطَّاعة:

الاستِجابةُ: هي الإجابة، وهي موافقةُ الدّاعي إلى الفعلِ من أجلِ أنَّه دعا به؛ ولذا يُقالُ: أجابَ اللّهُ فُلانًا، ولا يُقالُ: أطاعَه، وهي تقعُ عن حكمةٍ ومصلحة[2].

الاستجابةُ: هي الإجابة، والطَّاعةُ اتّباع الآمر، والأولى أحسن في السّياق وآثر

والطّاعةُ تكونُ من الأَدْنَى إلى الأعلى؛ لأنَّها في موافقةِ الإرادةِ الواقعةِ موقعَ المسألة، والطّاعةُ إنَّما تقعُ رغبةً أوْ رهبة[3]، وهي تكونُ للخالقِ والمخلوق.

والطّاعةُ في مجازِ اللُّغة تكونُ اتّباع المدعوِّ الدّاعي إلى ما دعاه إليه، وإنْ لم يقصدِ التَّبَع، كالإنسانِ يكونُ مطيعًا للشَّيطان، وإن لم يقصدْ أن يُطيعَه، ولكنَّه اتَّبعَ دعاءَه وإرادتَه[4].

ومن بيانِ الفرقِ بين الكلمتَيْن يتَّضحُ أنَّ استخدامَ السّياقِ القُرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ للفعل ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ أوفرُ حظًّا وأقومُ قيلًا من الفعل (يُطيع)؛ لسببَيْن:

الأوَّلُ: تلبيةُ دعوةِ مَنْ دَعا، وهو أعلى رُتبة، وهو الخالقُ ﷻ عن قَصْدٍ في اتِّباع أمره.

والثّاني: لأنَّه صاحبُ الخَلْقِ والأمرِ والحكمةِ فيما يَدْعو إليه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 334 - 335.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 335.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.

ولذلك أخبرَ أنَّ الَّذين يَسْتجيبون همُ الَّذين يسمعونَ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر، لا سماعَ هُروبٍ وتَذَمُّر.

الرّجوع والردّ:

الرّجوع ما يعاد وهو محبوب، والرّدّ ما يرجع وهو مكروه

تُستعمل إحدَى الكلمَتَيْن مكانَ الأُخرى، لكنّ الأصلَ في الرّجْع أن يكونَ فيما يجوزُ أن تُرجِعَه من غيرِ كراهةٍ له، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ولا يجوزُ أن تردَّه إلا إذا كرهتَ حالَه[1].

البعث والنّشر والإحياء والإخراج:

تدور هذه الألفاظ حول معنى الرّجوع إلى الحياة، باستقبال الآخرة وأهوالها

بعثُ الخلق اسْمٌ لإخراجهم من قُبورهم إِلَى الموقفِ، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾. وأمّا النّشور فهو اسْم لظُهور المبعوثين وظُهورِ أعمارهم لِلْخَلائِقِ، ومِنْه قَوْلُك: نشرتُ اسْمك ونشرتُ فَضيلَة فلان، إلّا أَنّه قيلَ: أنشرَ اللّه المَوْتَى بالألف، ونشرتُ الفَضيلَةَ والثَّوْبَ؛ للْفرقِ بَين المَعْنيين[2]. والإخراج مرادف للبعث يعني إخراجَ الموتى من قبورِهم، وإعادةَ الحياةِ إليهم، وبعثِهم مما كانوا فيه من العدمِ والتّلاشي إلى الوجودِ والإعادةِ والإحياءِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»